الابتــلاء

رحمة أو عذاب

أحمد أحمد جاد

المدائن

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

دار المدائن للنشر والتوزيع

العجمى : البطاش - مدينة الأندلس والحجاز - عمارة ١٤
سموحة :٢٧ ش محمود داود - عمارة الجمارك - الدور الثاني
الاسكندرية - تليفاكس : ٤٢٤٠٢٠٣

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المتقين ..

وبعـــد،

فإن الله تعالى خلق الانسان ليبتليه، ووهبه أدوات المعرفة، وبين لـه طريق الهدى من الضلال، وتركه ليختار ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الانسان ٢/٣.

وفى هذا الكتيب اقتصرت على الابتلاء حين يكون رحمة أو عذاباً، لأنه الموضوع الذى أشكل على كثير من الناس، فقد ينزل البلاء على إنسان فلا يدرى أهو رحمة أو عذاب ؟ وقد يعجب الإنسان حين يرى المؤمنين ضعفاء مغلوبين، فى ضيق وشدة، مع أن الظالمين فى رخاء وسعة !

وقد يبتلى الله المؤمن بالمصائب والآلام فيظنها عذابا وهى فى حقيقتها رحمة ! يكفر الله بها عن خطاياه، أو

يرفعه بها درجة.. وقد يبتلى الله الظالم بالأموال والأولاد والجاه، فيظن الجاهل أن هذا إنعام ورحمة ولا يدرى أنه فى الحقيقة عذاب ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ التوبة :٥٥

فهذه الرحمة الظاهرة إنما هى استدراج للظالمين : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ الأعراف : ١٨٢ / ١٨٣

ومن هنا قد تختلط الأمور على الجاهل حين يرى المؤمن فى مصيبة، وكذلك الكافر، فيظن أنهما سواء فى السبب والنتيجة !

وحتى لا تختلط الأمور، كان لابد من معرفة الميزان الصحيح الثابت الذى لا يضطرب مع الأحوال .. حتى يتبين الطريق الصحيح، ومعرفة ما إذا كان البلاء الذى نزل، رحمة هو أو عذاب ؟

وسنعرض الموضوع فى أربعة أبواب:

الباب الأول : فى الابتلاء بالرحمة أو بالعذاب.

الباب الثانى : ابتلاء المؤمنين بالرحمة فى صورة عذاب.
الباب الثالث : ابتلاء الظالمين بالعذاب فى صورة رحمة.
الباب الرابع : الابتلاء رحمة للمؤمنين عذاب للظالمين .

هذا وقد عرضت الموضوع بأسلوب بسيط، وفى إيجاز غير مخل، وعلى الله القبول، ونسأله تعالى التوفيق والرشاد، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يتقبلنا فى الصالحين، ولا يعذبنا بذنوبنا، وأن يرحمنا فى الدنيا والآخرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الأسكندرية فى :
جمادى الآخرة ١٤٢١هـ
سبتمبر ٢٠٠١م

أحمد أحمد جاد

★★★

الباب الأول
الابتلاء بالرحمة أو بالعذاب

الابتلاء قد يكون رحمة وقد يكون عذابا .

قال الراغب الأصفهانى : البلاء يكون منحة ومحنة، فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر .. ثم قال : وقوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة : ٤٩، راجع إلى الأمرين : إلى المحنة أى العذاب الذى فى قوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

وإلى المنحة التى أنجاكم، أى نجاكم من فرعون وعمله .

المفردات من غريب القرآن : ٦١ بتصرف

الدنيا دار ابتلاء :

وعطاء الله فيها ليس هو الجزاء، فإن الله يعطى المؤمن والكافر ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ الإسراء: ٢٠

والإنسان لا يلقى جزاءه فى الدنيا، وإنما الجزاء

هنـــاك ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ آل عمران:١٨٥ .

وسبب الرحمة : فى طاعة الله ورسـوله واتباع منهجـه ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ النور :٥٦، ومخالفة أمره تعالى هى سبب العذاب : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .النور : ٦٣

الابتلاء بالرحمة :

إن الرحمة صفة من صفات الخالق الرحيم، وسعت رحمته كل شيء، المؤمن والكافر . والإنسان لا يستطيع أن يحصى رحمة ربه ولا أن يكافئه ولو نعمة واحدة، ولو أمضى حياته راكعا وساجدا .. ولا يستطيع أن يستغنى عن رحمة ربه ولو طرفة عين.

يقول بن القيم : بعث الله إليك الدليل، وأعطاك السمع والبصر والفؤاد وعرفك الخير من الشر، أنعم عليك بالصحة والعافية، والمال والجاه، فاستعنت بنعمه على معاصيه .. ورغم ذلك فتح لك أبواب رحمته، وقال:

« متى جئتنى قبلتك .. وإن تقربت منى شبرا تقربت منك زراعا، ولو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشـرك بى شيئا، أتيتك بقرابها مغفرة، أهل طاعتى أهل كرامتي، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إلى فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا إلى فأنا طبيبهم .. رحمتى سبقت غضبى » .

مختصر مدارج السالكين : ٦٤ وما بعدها بتصرف.

إن سليمان عليه السلام حين أغدق الله عليه بالنعم والرحمات، أدرك أن ذلك ابتلاء، فقال : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ النمل: ٤٠

وعلى العكس، قارون الذى أعطاه الله من كنوز الدنيا .. لم يشكر، وإنما استكبر وعصى وبغى .. فأخذه الله ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ القصص:٨١

الابتلاء بالرحمة أشد من الابتلاء بالعذاب :

لأن الشدة تجعل الإنسان يقاوم ويتحمل ويتضرع إلى الله ويستمد منه العون وينتظر الفرج، أما الابتلاء بالرخاء فيجعل الإنسان فى حالة استرخاء واستخفاف

ولا مبالاة، فالرخاء يلهي ويغري وينسي ويطغي، وصدق الله: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ العلق: ٦/٧، ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ : المؤمنون : ٧٥ .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ﴾ الشورى : ٢٧ .

الابتلاء بالعذاب :

وإن الله يبتلي عباده بالشدائد .. للتنبيه والتذكرة .. لعلهم يلجأون إليه ويتضرعون ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ الأنعام: ٤٢

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٠

العذاب بسبب الذنوب :

إن الذنوب سبب المصائب، قال علي : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ

مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ الشورى : ٣٠ وسأفسرها لك يا على : « ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أكرم من أن يثنى عليهم العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله تعالى عنه فى الدنيا فالله تعالى أحلم من أن يعود بعد عفوه».

أحمد : ١/٨٥ شاكر :٦٤٩ وقال إسناده صحيح .

وقال النبى ﷺ : «لا يزيد فى العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

ابن ماجه فى الفتن : ٤٠٢٢ وأحمد : ٥/٢٨٠

شاكر / حمزة : ٢٢٣١٢ صحيح .

وقال النبى ﷺ : « لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

الترمذى فى التفسير : ٣٢٥٢ غريب.

توزيع العقوبة بحسب الذنب :

قال النبى ﷺ :« يامعشر المهاجرين : خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر



الفاحشة فى قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا .. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم ».

ابن ماجه فى الفتن : ٤٠١٩ .

عذاب العامة بذنب الخاصة :

الأصل أن العقوبة لا تصيب إلا من أذنب، عملا بمبدأ شخصية العقوبة لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الإسراء : ١٥

لكن هناك حالات يعاقب فيها العامة بعمل الخاصة، وفى هذا يقول تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال : ٢٥ .

ذلك لأن الناس إذا رأوا المنكر فاشتركوا فى ترك إنكاره، استحقوا العقوبة كلهم.

روى الإمام مالك عن عمر بن عبد العزيز: إن الله تبارك وتعالى لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً، استحقوا العقوبة كلهم.

الموطأ : فى الكلام : ٧٥٧/٢٣ .

وقال النبى ﷺ : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب» .

أبو داود فى الملاحم : ٤٣٣٨ مختصرا من حديث طويل .

★★★

الباب الثانى

ابتلاء المؤمنين بالرحمة فى صورة عذاب

كثير من الناس إذا ابتلوا بمكروه ظنوا أنه عذاب، ولم يدركوا الحكمة ولا النتائج .. وحاشا لله أن يعذب عباده المؤمنين وهو بهم رؤوف رحيم، إنما هو سبحانه يبتلى عباده المؤمنين بالمصائب والشدائد ليصبروا .. فيمحو الخطايا أو يرفعهم درجات أو يكون الابتلاء للإعداد والتمكين.

يقول ابن القيم : وإذا تأملت حكمته سبحانه وتعالى فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التى لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج فى حقهم والكرامة، فصورته ابتلاء وباطنه فيه الرحمة والنعمة.

مفتاح دار السعادة : ٢٩٩/١

ويقول ابن القيم : إن الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه .. فهذه الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك فى

إيصال مصالحك ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه بالضرب وغيره، ويمنعه من شهواته التى تعود عليه بضرره .. ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين : تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه .. ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه .. وقد جاء فى الأثر : إن المبتلى إذا دعى له، اللهم ارحمه، يقول سبحانه : «كيف أرحمه من شىء به أرحمه ؟» وفى أثر آخر إن الله إذا أحب عبده حماه من الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمى أحدكم مريضه » فهذا من تمام رحمته لا من بخله عليه .

إغاثة اللهفان : ٢/١٧٥ والأثر الثانى

روى الترمذى نحوه فى الطب : ٢٠٣٦ حسن غريب .

فالابتلاء هنا رحمة وإن ظهر فى صورة عذاب .

وسنعرض صورا من هذا النوع من الابتلاء فى الفصول الأربعة الآتية :

الفصل الأول
خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار

قد تحدث حوادث يحكم الناس عليها بأنها ضرر وعذاب، مع أنها تحمل وراءها الرحمة الواسعة، فالسفينة خرقها الخضر وعجب موسى لأن هذا يؤدى إلى غرق من فيها، وهذا خطر عظيم !! والغلام قتله الخضر وعجب موسى لأنه قتله بدون وجه حق، وأقام الجدار .. ولم يأخذ أجرا مع حاجتهما إليه فى الوقت الذى أبى فيه أهل القرية أن يضيفوهما !!

والذى أشكل على موسى فسره الخضر :

أما السفينة فكانت تمر على ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة غصبا، فأراد الخضر أن يعيبها ليرد الملك عنها، فينتفع بها أصحابها المساكين .

وأما الغلام فكان كافرا، ولو بلغ لأضل أبويه وحملهما على الكفر، فقتله ليبدلهما ربهما ولدا خيرا منه دينا وصلاحا وطهارة ورحمة بوالديه .

وأما الجدار فقد أصلحه الخضر لأنه كان لغلامين

يتيمين وكان تحتحه كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد الله تعالى أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما.

فهذه الأفعال الثلاثة كان ظاهرها العذاب، ولكن كان من ورائها الرحمة، فخرق السفينة كان رحمة بأصحابها المساكين، وقتل الغلام كان رحمة لأبويه، وإصلاح الجدار كان رحمة لليتيمين لصلاح أبويهما .

يقول ابن كثير في تفسير ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح.

راجع ابن كثير في تفسير سورة الكهف آية رقم ٨٢

وفي عجائب الخضر يقول النبي ﷺ : « يرحم الله موسى، لوددنا أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارها ..» .

جزء من حديث الترمذي في التفسير : ٣١٤٩

حسن صحيح، والبخاري

في أحاديث الأنبياء ٣٤٠١ وغيرهم .

الفصل الثانى
الابتلاء لتكفير الخطايا ورفع الدرجات

ومن صــور الابتـلاء بـالرحــمــة فى صــورة عـذاب : الابتـلاء بـالمصـائب والشدائد التى تصيب المؤمن فى الدنيـا .. فــهــذا الابتــلاء إنما هو لتكفــيـر أو لرفع الدرجات، ذلك لأن من شأن الإنسان أن يخطىء ولكل خطأ جزاء، لكن من رحمة الله بعباده المؤمنين أن جعل لهم أسبابا كثيرة لمحو الخطايا، ومنها الابتلاء .. فما من مصيبة تصيب المؤمن من هم أو حزن أو شدة .. إلا كفر الله بها عن خطاياه وقد لا يرتكب المؤمن خطأ، ومع ذلك يبتليه الله ليرفع درجته عنده ..

أولا : الابتلاء لتكفير الخطايا :

يقول تعالى : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ النساء : ١٢٣

لما نزلت هذه الآية تأثر بها الصحابة .. قال أبو بكر : يا رسـول الله، كـيف الصـلاح بعـد هذه الآية .. كل سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبى ﷺ : «غفر الله لك

يا أبا بكر، ألست تمرض ؟ ألست تحـــزن، ألست تصيبك اللأواء ؟ قال بلى، قال : فهو ما تجزون به ».

مسند أحمد : ١١/١ شاكر : ٦٨ وقال إسناده ضعيف

وصححه الحاكم ووافقه الذهبى

واللأواء : المشقة والشدة.

فـالمسلم يجـازى على خطاياه فى الدنيـا بالمصـائب التى تقع له فيها فتكون كفارة لها .

فتح البارى : ١٠٨/١٠ كتاب المرضى

باب ما جاء فى كفارة المرضى .

وقال النبى ﷺ : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب – دوام الوجع – ولا هم ولا حـــزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن خطاياه».

البخارى فى المرض : ٥٦٤٠ ومسلم فى البر : ٢٥٧٢

وأحمد : ١١٤/٦ شاكر/حمزة : ٢٤٧٠٩، وقال إسناده صحيح

وقال النبى ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها من العمل ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه ».

أحمد : ٦/١٥٧ شاكر /حمزة : ٢٥١١٢

وقال: إسناده صحيح .

وقال النبى ﷺ :« أمتى هذه أمة مرحومة، ليس لها عذاب فى الآخرة، عذابها فى الدنيا : الفتن والزلازل والقتل » .

أبو داود فى الفتن : ٤٢٢٨

وقال النبى ﷺ : «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى ما عليه خطيئة».

الترمذى فى الزهد : ٢٣٩٩ حسن،

ومالك فى الموطأ فى الجنائز : ٤٠/٢٠٤

فالابتلاء هنا كان رحمة بالمؤمن، لأنه تكفير عما ارتكبه من خطايا، وكل ابن آدم خطاء

ثانيا : الابتلاء لرفع الدرجات :

قال النبى ﷺ :« إذا سبقت للعبد منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله فى جسده أو فى ماله أو فى ولده، ثم صبره حتى يبلغ المنزلة التى سبقت له منه » .

رواه أحمد : ٥/٢٧٢ شاكر / حمزة :
٢٢٢٣٨ وأبو داود في الجنائز : ٣٠٩٠ وأبو
يعلى والطبراني في الكبير والأوسط والجامع
الصغير : ٦٦٩ وقال:حديث صحيح

وقال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى الجزاء به يوم القيامة، وبهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط » .

الترمذى فى الزهد : ٢٣٩٦ حسن،
وابن ماجه فى الفتن : ٤٠٣١ .

وقال النبى ﷺ : « ما من مسلم يصاب بشىء فى جسده فيتصدق به - أى يعفو عمن ظلمه - إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » .

أحمد: ٦/٤٤٨ شاكر/حمزة: ٢٧٤٠٥ صحيح

وعن أبى سعيد الخدرى قال: دخلت على النبى ﷺ

وهو يوعك، فوضعت يدى عليه فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف، فقلت يا رسول الله: ما أشدها عليك قال: إنا كذلك يضاعف لنا البلاء ويضاعف لنا الأجر، قلت يا رسول الله، أى الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، قلت يا رسول الله ثم من؟ قال: ثم الصالحون ...»

جزء من حديث رواه ابن ماجه فى الفتن: ٤٠٢٤
والترمذى فى الزهد: ٢٣٩٨ مختصرا.

شروط الكفارة ورفع الدرجة :

١- أن يصبر فى أول وقوع البلاء، فيوفض أمره ويحتسب، وفى الحديث : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

البخارى فى الجنائز : ١٣٠٢ ومسلم
فى الجنائز : ٩٢٦ وغيرهما .

٢- أن يصبر مستحضرا ما وعد الله به الصابرين من الثواب، والثواب يعظم مع الصبر الجميل والرضا
راجع فتح البارى : ١١٠/١٠، ١١٥

٣- أن لا يكون الصبر صبر اليائس، فمتى تضجر

ثم ينس فصبر، لا يكون قد حصل المقصود .

٤ - أن يلجأ إلى الله بالدعوات وخاصة دعاء المكروب. وكذلك يدعو أن لا يكون هذا البلاء عذابا وسيأتي هذا في الباب الرابع بإذن الله

وهناك أحاديث كثيرة في تهوين المصيبة، واستبدال الحزن بالفرح، وانتظار الفرج ودعوات المكروب .. يرجع إليها في أبواب الدعاء .

★★★

الفصل الثالث
الابتلاء لتمحيص النفوس
وتمييز الصفوف

إن المسلمين الذين خرجوا إلى معركة أحد فيهم المؤمن والمنافق، كان فيهم المؤمن القوى والمؤمن الضعيف ، كان فيهم من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة .. فكان لابد من الابتلاء لتمحيص النفوس وتمييز الصفوف، يقول تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران : ١٤١، ويقول تعالى : ﴿ .. وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ آل عمران : ١٥٤ .

تمحيص النفوس :

التمحيص : الاختبار، وهو عملية تتم فى داخل النفس وفى مكنون الضمير .. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكنونات، تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب،

وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق، بلا غبش ولا ضباب ..

وكثيراً ما يجهل الإنسان نفسه، ومخابئها ودروبها .. وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها وحقيقة ما استكن فيها من رواسب لا تظهر إلا بمثير !

وفى هذا التمحيص الذى يتولاه الله سبحانه بالشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم مالم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير : محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية والواقعية .

وقد يظن الإنسان فى نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والإخلاص من والشح والحرص، ثم إذا هو يكتشف على ضوء التجربة العملية، أن فى نفسه أشياء لم تمحص، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه.

والله سبحانه كان يربى هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية، وكان يريد بها أمرا فى هذه الأرض،

فمحصها هذا التمحيص، لترتفع إلى مستوى هذا الدورر المقدر لها، وليتحقق عى يديها قدر الله الذى ناطه بها

في ظلال القرآن: ٤٨٢

كان لابد من الابتلاء إذن لكى تظهر النفوس على حقيقتها، فالابتلاء يكشف ما فى الصدور، ويصهر ما فى القلوب فينفى عنها الغبش والرياء .. فالابتلاء تطهير وتصفية للقلوب وتصحيح للعقيدة وتخليصها من الشبهات .

تمييز الصفوف :

إن الله سبحانه يعلم المؤمن الصادق من المنافق، لكن هذا يعتبر غيب بالنسبة إلى الناس لا يطلعه عليهم، إنما يعرف الناس هذا الغيب بعد أن يظهر فى الواقع، بعد أن ينزل البلاء وتكون المحنة التى تميز المؤمن والمنافق.

يقول تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ آل عمران : ١٧٩ .

قال القرطبى: ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق، حتى يميز بينكم بالمحنة والتكليف، فتعرفوا المنافق الخبيث، والمؤمن الطيب، وقد ميز يوم أحد بين الفريقين .. وما كان الله ليبين المنافقين حتى تعرفوهم، ولكن يُظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة، وقد ظهر ذلك يوم أحد، فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة، فما كنتم تعرفون الغيب قبل هذا، فالآن قد أطلع الله محمداً ﷺ وصحبه على ذلك .

القرطبى : ١٥٣١ الشعب ملزمة : ١٧

إن هذه الأمة : خير أمة أخرجت للناس، إنها الأمة التى تحمل الحق والنور .. النور الذى يبدد ظلمات المعتقدات والتقاليد الفاسدة . ولن تكون خير أمة إلا إذا كانت على مستوى الإيمان الذى لا يتزعزع والثقة بالله التى لا تضعف، إن من أهدافها تحقيق منهج الله فى الأرض، وتحرير أوطانها وإحياء مجدها، وجمع كلمتها، حتى تعود الخلافة المفقودة المنشودة، فلا بد أن

يصهر الصف ليخرج منه الخبث، وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة .. ومن هنا كان الابتلاء ليتطهر الصف ويظهر النفاق ويميز الله الخبيث من الطيب. وحتى يظهر القادة العلماء الحكماء الرحماء.

آثار التمحيص والتمييز :

معركة أحد لم تكن فى ميدان القتال وحده، بل كانت فى ميدان النفس كذلك، ومن هنا كشفت عن حقائق فى تمحيص النفس وتمييز الصف، ولقد كشفت عن مواطن القوة والضعف، كشفت عن المنافقين المندسين فى الصف المسلم، وكشفت عمن يريد الدنيا من المؤمنين ومن انهزم منهم نفسياً وولى من المعركة، كما كشفت عمن كمل إيمانه أو ضعف ..

١. انسحاب المنافقين من المعركة :

فى هذه المعركة خرجت قريش بثلاثة آلاف مقاتل. .خرج النبى ﷺ بألف، وسار بالجيش حتى إذا كان على مقربة من العدو، انشق عبد الله بن أبى على رسول الله ﷺ ورجع بثلاثمائة من أهل النفاق والريب

متذرعاً بأن النبى ﷺ أخذ برأى الشباب المغرور وترك رأيه ورأى الشيوخ أرباب الحجى والأحلام ! .

وكان هدفه الرئيسى من هذا التمرد فى ذلك الظرف الدقيق. أن يحدث بلبلة فى جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبى ﷺ ، وتنهار معنويات من بقى معه، فيكون ذلك هزيمة للمسلمين، ثم يصفو له الجو لعودة الرياسة إليه. وما كان يهدف إليه كاد أن يتحقق، فقد همت طائفتان من المسلمين أن تفشلا وينسحبا لولا أن الله ثبتهما وفيهما نزلت ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ آل عمران: ١٢٢

وقد حاول عبد الله بن عمرو بن حرام أن يثنى عبد الله بن أبى ومن معه عن رجوعهم وأن لا يشقوا عصا الجماعة وأن لا يخذلوا نبيهم فيقولون له : لو نعلم قتالا لاتبعناكم .. وهذه من سمات المنافقين الذين يريدون من الإسلام مغانمه ويبتعدون عن مغارمه، وفى شأنهم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ

وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .. ﴾ آل عمران:١٦٧/١٦٦

٢- من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة :

لما عسكر النبى ﷺ فى أحد، جعل ظهور المؤمنين إلى الجبل، وجعل عليه خمسين راميا وقال لهم : قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا . وأمرهم ألا يتركوا مواقعهم سواء المعركة للمسلمين أو عليهم . ولما دارت المعركة وانكشف المشركون منهزمين، تبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون، أما الرماة من فوق الجبل، فقد اختلفوا فيما بينهم فى النزول لأخذ الغنائم ظنا منهم أن الحرب قد انتهت، وكانت هذه فرصة للمشركين حيث هجموا على من بقى من الرماة فقتلوهم، وأخذوا يهجمون على المسلمين من الخلف.. وحينئذ انكشف المسلمون، وانقلب ميزان المعركة وجرح النبى ﷺ وأشيع أنه قتل ! ونزلت الآية : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا

وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ آل عمران ١٥٢ .

وقد روى عن عبد الله بن مسعود : ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزلت فينا ما نزل يوم أحد .

راجع ابن كثير فى تفسير الآية .

٣- من انهزم ومن لم ينهزم :

لما انقلب ميزان المعركة، ولى كثير من المسلمين هربا إلى الجبل وإلى المدينة، لا يلوون على أحد من الخوف والفزع والرعب، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ لولا أن نفرا من المسلمين ثبت مع رسول الله ﷺ ودافع عنه. وفى وسط هذا الهول المحيط بالمسلمين، صاح صائح : محمدا قتل، فانقلب الناس مهزومين من اليأس .. لكن أنس بن النضر لم ينهزم .. قابله نفر من المسلمين قد ألقوا ما بأيديهم وجلسوا وقالوا: قتل رسول الله ﷺ فقال أنس : فما تصنعون بالحياة بعده، فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

ثم قاتل حتى قتل رضى الله عنه، ووجد به بضع

وسبعون ضربة، ولم تعرفه إلا أخته، عرفته ببنانه .. لقد كان فهم أنس رضى الله عنه لهذه الدعوة فهما عاليا، لم ينهزم، أدرك أن الدعوة أكبر وأبقى من الداعية، فالداعية يأتى ويمضى وتبقى الدعوة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ آل عمران :١٤٤ وفيه نزلت ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ الأحزاب:٢٣ .

راجع البخارى فى تفسير سورة الأحزاب : ٤٧٨٣

ومن هنا ندرك أن الذى انهزم فى المعركة، هو الذى ترك الميدان وتولى .. أما الذى لم ينهزم، فهو الذى صبر وثبت وقاتل وإن كان قتل .

٤- من كمل إيمانه ومن نقص :

لقد كشفت المعركة عن طائفتين، طائفة مؤمنة صحت عقيدتها وكمل إيمانها، تؤمن بأن الأمر كله لله، وأن الله لا يخذل جنده، فأسلمت نفسها لله واطمأنت به وتوكلت عليه فهى آمنة، غشاها النعاس فى وقت الفزع، لم

تجـزع ولم تيـأس ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ آل عمران : ١٥٤ .

وطائفة لم تصح عقيدتها بسبب رواسب الجاهلية ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أنفسهم هى كل اهتمامهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يرون أنهم دخلوا معركة ليس لهم فيها شيء .. فهم فى قلق وفزع .. يظنون أن الله لا ينصر رسوله، ولو كان الأمر بيدهم ما حدثت الهزيمة، يقولون ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ؟﴾ فهم فى وقت الشدة يلقون باللوم على القيادة ويعترضون عليها لأنها أخطأت، وهم ضحية هذا الخطأ!!.

٥- تصحيح العقيدة :

والله سبحانه يصحح لهم تصورهم ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ آل عمران :١٥٤ أمر الحياة والموت، أمر النصر والهزيمة، أمر الدنيا والآخرة، وما على المسلم إلا أن يأخذ بالأسباب، ثم يستسلم لقدر الله تعالى، فالنتائج بيده، والخير كله بيده .

ومن ظنهم وتصورهم الخاطىء أنهم قالوا :﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾. أى لو كانت لهم القيادة ما قتلوا، ومن هنا كان التصحيح ﴿ ... قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ آل عمران :١٥٤، لو كنتم فى بيوتكم وخرجتم بإرادتكم وتقديركم، لا بإرادة القيادة، لبرز الذين كتب عليهم الموت إلى مضاجعهم .. فالموت مقدر، إذا جاء لا يؤخر، بل يسعى صاحبه بنفسه إلى المكان المقدر له أن يموت فيه .. والموت والحياة لا صلة لهما بالحرب أو السلم، وأن الحذر لا يغنى من القدر، وإنما هى أرزاق مقسومة وآجال معلومة .. وإنه الابتلاء الذى يمحص النفوس ويكشفها، ويبين مواطن القوة ومواطن الضعف ﴿ ... وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾آل عمران : ١٥٤ .

★★★

الفصل الرابع
الابتلاء للتربية والإعداد والتمكين

ومن صور الابتلاء بالرحمة فى صورة عذاب، الابتلاء للتربية والإعداد لحمل الأمانة .. أمانة إرشاد البشرية إلى الطريق الصحيح، إلى إقرار منهج الله وتحقيق عالمية الإسلام .

وقد كان التمحيص والتمييز للتربية والإعداد لهذه المهمة العظمى . والله سبحانه كان يربى الجماعة المختارة لقيادة البشرية، فمحصها هذا التمحيص الذى تكشفت عنه الأحداث فى أحد ..

كان لابد فى إعداد الجماعة المسلمة من تربية النفوس .. وهذا لا يتم إلا بصهرها وتشكيلها بالتدريبات العملية الشاقة .. كان لابد من الابتلاء بالشدائد ليصلب عود أصحاب العقيدة، فالشدائد تستجيش مكنون النفس ومذخور الطاقة، ويعلم الإنسان من نفسه ما لم يكن يعلمه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين ما كانت لتصح وتدق

وتستقيم إلا فى جو المحنة التى تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب .. ثم يخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سندا إلا سنده .. لا قوة إلا قوته .. لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه .

التربية والإعداد قبل النصر والتمكين :

إن الله تعالى قادر على أن ينصر عباده دون ابتلاء أو معاناه، وهو قادر أن يهلك المشركين الظالمين. لكن المسألة ليست هكذا، إنما هى تربية الجماعة لإعدادها لنشر دعوته واستنقاذ البشرية من الضلال .. وهذا يقتضى تربية عالية، من حسن الخلق وصبر على الرخاء وصبر على الشدة وثبات على الحق ومعرفة بمواطن القوة والضعف .. ووسائل العلاج .

وإن الله لا ينصر عباده المؤمنين لأنهم أكثر عددا وعدة، وإنما لأنهم تلقوا التربية الإيمانية الجهادية .. صنعتهم الأحداث، وشكلتهم المحن، وما على الجماعة إلا أن تأخذ بالأسباب، أما قدر الله فى إعدادها فسيمضى، إما بالنصر، فتشكر وتتواضع، وتصبر على

نشوة النصر ومغالبة الزهو .. وإما يمضى عن طريق الهـزيمـة والشـدة فـتلجـأ إلى الله، ويكون الدرس والتمـحيص والتمييز .. وتخرج من النصر أو الهزيمة بالزاد والرصيد .

الهدف من التمكين :

إن الله وعد الذين آمنوا .. وعملوا الصالحات .. وعدهم بالتمكين فى الأرض، ذلك لأنهم آمنوا بالمنهج الربانى : عقيدة وشريعة وأخلاقا وعبودية لله تعالى .. وأعدوا أنفسهم لحمل هذه الأمانة وتبليغها .. أصابتهم المحن فصبروا وكانوا على يقين بالله ونصره ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة : ٢٤ .

هؤلاء يمكنهم الله فى الأرض ويجـعل دينهم الذى ارتضـاه لهم عـزيزا مكينا عـاليـا علـى كل الأديان ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ النور : ٥٥ .

فالتمكين منبر للدعوة وقاعدة لها، ولتحقيق منهج الله فى الأرض وإعلاء كلمته وإقامة العدل والأمن والسلام

والإصلاح والبناء والتعمير وتعبيد الناس لرب الناس ..
﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ الحج:٤١

سنة الله فى الإعداد والتمكين :

إن القرآن هو الرائد المربى لهذه الأمة، يعدها ويربيها لقيادة العالم شرط أن تتمسك به، وتعتز به، وتستمد منهج حياتها منه، فإذا هى فعلت ذلك كان الصلاح ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ الأعراف :٧٠

إن المؤمنين تعرضوا للمحن والشدائد .. وكان الإعداد وكان التمكين .

فهذا إبراهيم عليه السلام ابتلاه ربه بالهجرة وفراق أهله ومحاجة النمرود، وإلقائه فى النار .. وذبح ابنه، فلما صبر ووفى وأتم .. قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ البقرة : ١٢٤ .

وهذا يوسف عليه السلام يبتلى منذ الطفولة بسلسلة من الابتلاءات والشدائد .. وتنزل الآيات ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا

لِيُوسُفَ ..﴾ يوسف : ٥٦ .

فهذه سنة الله فى الابتلاء للإعداد والتمكين ﴿ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ..﴾ الأنعام : ٣٤ .

سئل الإمام الشافعى : أيهما أفضل للرجل، أن يمكن أو يبتلى ؟ فقال : لا يمكن حتى يبتلى، والله تعالى ابتلى أولى العزم فلما صبروا مكنهم .

الفوائد لابن القيم : ١٩٧ .

إن القرآن ليس كلاما يتلى .. ولكنه دستور هذه الأمة فى التربية والإعداد والتمكين، ولقد عرض تجارب الأمم السابقة لكى تكون العبرة والموعظة والدرس .

ففى قصة طالوت .. كان الابتلاء للتمحيص والتمييز .. إن بنى إسرائيل من بعد موسى .. ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم فلم يكن إلا الجهاد .. لكن لما كتب عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٢٤٦ .

وكان الابتلاء الثانى أنهم اعترضوا على القائد .. لأنه ليس ملكا بالوراثة ولا صاحب مال !! ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ البقرة :٢٤٧ .

فرغم أن الله اصطفاه عليهم واختاره منهم، وهو أعلم بمن خلق .. كان الجدل .

ثم كان امتحان النهر ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ البقرة:٢٤٩ .

ثم كان الابتلاء بلقاء العدو .. فقالوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ البقرة : ٢٤٩ .

ولم يمكن الله إلا للفئة المؤمنة التى مرت بسلسلة من الابتلاءات، بعد أن تلقت التربية العالية .. وهى التى صبرت واثقة بنصر الله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إنها فئة قليلة حقا لكنها تؤمن وتعتز بقوة أكبر، قوة غالبة حيث لا قوة إلا قوته، فهو سبحانه القاهر فوق عباده.. وعند لقاء العدو، تدعو وتلجأ إلى

الله ﴿ .. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .. ﴾البقرة: ٢٥٠، وصدق الله ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ آل عمران: ١٦٠، وهذا قانون الله الذى لا يتغير ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ محمد : ٧ .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج : ٤٠ .

إن المؤمنين ستار القدرة، يفعل الله بهم ما يشاء، يختارهم لتنفيذ نصره، فالنصر للعقيدة الراسخة الموصولة بالله، لا للقوة المادية الظاهرة، ولا للكثرة المستكبرة المحاربة لله ولرسوله وللمؤمنين .. والتاريخ يشهد بذلك. وهذه سنة الله التى لا تتخلف ولا تتبدل.

ولقد نصر الله الفئة القليلة المؤمنة حينما نادت الله أكبر فى العاشر من رمضان. وهذا حزب الله فى جنوب لبنان، حيث انسحاب الجنود الإسرائيلية مهرولين مفزوعين برغم ما يملكون من السلاح

الأسطورة !! وهؤلاء الصابرون الصامدون فى فلسطين وفى جنوب لبنان وفى كشمير والشيشان .. وهؤلاء على موعد من نصر الله قريب .. ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الروم :٤/٥

★★★

الباب الثالث

ابتلاء الظالمين بالعذاب فى صورة رحمة

والابتلاء هنا فى ظاهره الرحمة وفى باطنه العذاب، وهو ابتلاء بإدرار النعم على الظالمين مع نسيان المنعم، أو ظنهم أنها لم تحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة !؟ أو نسبة النعم إلى علمهم وذكائهم ! فاغتروا بها ولم يدركوا أنها ابتلاء .. وقد تفسدهم هذه النعم فيكونوا طغاة مستبدين .. وهنا يأخذهم الله على غفلة، أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ القلم: ٤٥/٤٤

فهذه النعم ليست عطاء تكريم ومحبة، وإنما هى استدراج .

عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام : ٤٤ .

مسند أحمد : ٤ / ١٤٥ شاكر/حمزة : ١٧٢٤٤
وقال إسناده حسن ورواه غيره .

قال الضحاك : كلما جددوا لنا معصية، جددنا لهم نعمة .

وقال لشاعر :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

العطاء للظالمين ليس دليلا على المحبة.

كثير من الناس يظنون أن عطاء الله دليل على محبته، مع أن عطاء الله ابتلاء، فالابتلاء كما يكون بالشر يكون بالخير، فليس العطاء دليل على التكريم، ولا المنع دليل على الإهانة، يقول الله تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ . .﴾الفجر ١٦/١٥

ويقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ المؤمنون: ٥٥/٥٦

أى أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ؟ كلا بل لا يشعرون بشئ أصلا كالبهائم التى لا تفهم ولا تعقل، فإن ماخولناهم من النعم وأمددناهم بأنواع الخيرات إنما هو استدراج

وفى الحديث « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه .. » .

جزء من حديث رواه الإمام أحمد : ١/٣٨٧

شاكر : ٣٦٧٢ وقال إسناده ضعيف،

ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى .

إن الظالمين يستدلون على أن عطاء الله لهم من رياسة أو جاه أو مال .. إنما هو محبة ونصر من الله !

يقول ابن القيم : فمن استدل بشئ من ذلك، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفة من الله ومعرفة دينه ..

والحقيقة أن المال والملك إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره، ألحقه الله بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال عليه، ومبعد له عن الله وملحق له بالملوك الظلمة .

مختصر مدارج السالكين،

للمؤلف : ٣٩ دار الدعوة .

وكان ابن تيمية يقول : أعظم الكرامة، لزوم الاستقامة .

مختصر مدارج السالكين : منزلة

الاستقامة. للمؤلف، دار الدعوة .

العطاء للظالمين عذاب :

إن عطاء الله يكون رحمة وبركة للمؤمنين، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الأعراف : ٩٦ .

ويكون عذابا لمن كفر وظلم : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا

أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ التوبة : ٥٥ .

طغيان الظالمين بسبب العطاء :

إن عطاء الله للظالمين المكذبين، يلهيهم وينسيهم ويغريهم ويطغيهم ..

فهذا فرعون أعطاه الله من الزينة والمال .. فبغى وطغى، واستخدم عطاء الله فى إذلال الناس وإضلالهم وإفسادهم، ولم ينتبه أن العطاء ابتلاء وفتنة، ومن هنا كان دعاء موسى عليه ﴿ .. وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وأموالاً فى الحيواة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ يونس : ٨٨ .

وكان هذا شأن قارون الذى أعطاه الله من كنوز الأرض ﴿ .. إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ القصص : ٧٦

وكان شأن الذى حاج إبراهيم فى ربه .. لماذا ؟ ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ البقرة : ٢٥٨ وكان شأن أحد أشراف قريش الذى وهبه الله من المال والبنين، فكان يحارب دعوة الله ! لماذا ؟ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ القلم: ١٤ .

لولا الفتنة لكان العطاء للظالمين وحدهم :

إن العطاء فتنة للظالمين، وكذلك فتنة للعامة حين يرون أن الظالمين فى قوة وسلطة وجاه ومال .. فيظن ضعيف الإيمان بربه غير الحق، وأن الله يعطى من لايستحق ! وخاصة حين يرى أن المؤمن يمتحن على أيدى الظالمين، الذين أعطاهم الله! فيظن أن الله تاركه لا ينصره ولا ينصر دعوته !

إن الدنيا بزينتها وما فيها لا تساوى شيئا عند الله، وإنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لكان الاختصاص بالمال للظالمين وحدهم ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ الزخرف:٣٣ أى ولولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطائنا المال على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا

على الكفر. بسبب ميلهم إلى الدنيا وزخرفها ﴿ ... لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولِبُيُوتهمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذلكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف:٣٣/ ٣٥

ولكن الله رحيم بعباده، أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم .. وإلا لأدى اختصاص الكفار بالمال وزينة الدنيا إلى كفر الناس لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، ولو وسع على المسلمين لدخل الناس فى الإسلام لأجل الدنيا . ولكن الله خبير بعباده، وزع الفقر والغنى .

وفى الحديث « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرا منها شربة ماء » .

الترمذى فى الزهد : ٢٣٢٠ صحيح وابن ماجه فى الزهد : ٤١١٠ بألفاظ متقاربة .

وفى الحديث « إن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

ابن كثير فى تفسير الآية رقم : ٢٧ من سورة الشورى .

وعن عمر بن الخطاب أنه دخل على النبى ﷺ .. فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينها فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئ على وساده من أدم حشوها ليف .. قال عمر: ثم رفعت بصرى فى بيته، فوالله ما رأيت شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع الله عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، وكان متكئا، فقال : « أو فى شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » قلت : «يا رسول الله، استغفر لى .. » .

جزء من حديث البخارى فى المظالم : ٢٤٦٨ ومسلم فى الطلاق : ١٤٧٩ نحوه

***

الباب الرابع

الابتلاء رحمة للمؤمنين عذاب للظالمين

قد ينزل البلاء فيكون رحمة للمؤمنين عذابا للظالمين.

أى أن البلاء هنا بالشىء الواحد، كالطاعون مثلا، يكون رحمة للمؤمن وهو بذاته يكون عذابا للكافر .

صور من هذا البلاء

١- الابتلاء بالطاعون :

قال النبى ﷺ: « ... الطاعون شهادة لأمتى ورحمة لهم، ورجس على الكافر » .

جزء من حديث رواه أحمد : ٥ / ٨١ شاكر/حمزة : ٢٠٦٤٦ وقال : إسناده صحيح والبخاري في الجهاد : ٢٨٣٠ مختصرا ومسلم في الإمارة : ١٩١٦

فهذا الطاعون، مرض وابتلاء، يصيب الله به من يشاء مؤمنا أو كافرا، فإذا أصاب به مؤمنا فهو له رحمة، يكفر عنه من خطاياه، أو يرفعه درجة .. ونفس المرض، إذا أصاب به كافرا فهو له عذاب .

وقد روى أن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين .. »

البخارى : الأنبياء : ٣٤٧٤ وفى الطب : ٥٧٣٤ .

قال فى الفتح : كون الطاعون رحمة إنما هو خاص بالمسلمين، وإذا وقع بالكفار، فإنما هو عذاب عليهم يعجل لهم فى الدنيا قبل الآخرة .

فتح البارى : ١٠ / ٢٠٣ .

٢- الابتلاء بالريح والمطر :

نعلم من التاريخ كيف أهلك الله الظالمين بالريح الصرصر العاتية، وكيف صنعت بالمشركين يوم الخندق ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا ...** ﴾ فكفأت قدورهم، ونزعت خيامهم ..

لذلك كان النبى ﷺ يخشى الريح وما تحمله من عذاب.

عن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله! أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه

المطر .. وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية ؟
قالت : فقال : « يا عائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب . قد عذب قوم بالريح .. وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا » .

مسلم : فى صلاة الاستسقاء : ١٦/٨٩٩

والبخارى فى التفسير : ٤٨٢٩ .

وفى رواية : « إنى خشيت أن يكون عذابا سلط على أمتي، ويقول إذا رأى المطر « رحمة » .

مسلم فى صلاة الاستسقاء : ٨٩٩ / ١٤

وفى رواية :« كان النبى ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت له .».

مسلم فى صلاة الاستسقاء : ٨٩٩ / ١٥

ومن هنا كانت أهمية الدعاء عند نزول البلاء فيسأل العبد ربه أن يكون رحمة وأن لا يكون عذابا، لذلك كان النبى ﷺ يدعو بالدعاء المشهور عند نزول البلاء: « .. إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى .. ».

والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن والسنة، ومنها أحاديث الباب هاهنا .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تسبوا الريح، فإنها من روح الله، تأتي بالرحمة أو بالعذاب، ولكن سلوا الله من خيرها، وتعوذوا من شرها.

أبو داود في الأدب : ٥٠٩٧، وابن ماجه في الأدب : ٣٧٢٧

وأحمد:٢/٥١٨ شاكر/حمزة : ١٠٦٦٢

وقال : إسناده صحيح . وروح الله رحمته.

وعن أنس قال : أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ فبينما هو يخطبنا يوم الجمعة، إذ قام رجل فقال : يا رسول الله، هلك الكراع هلك الشاء، فادع الله أن يسقينا، فمد يديه ودعا، قال أنس : وإن السماء لمثل الزجاجة، فهاجت ريح، ثم أنشأت سحابة ثم اجتمعت ثم أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم يزل المطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره، فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت فادع الله أن يحبسه،

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : حوالينا ولا علينا» فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل .

أبو داود في الصلاة : ١١٧٤ واللفظ له وابن ماجه
في إقامة الصلاة : ١٢٦٩ وأحمد ١٩٤/٣
شاكر/حمزة : ١٢٩٥٠ وقال : إسناده صحيح .

واضح من هذا الحديث أن نزول المطر كان رحمة.. فلما جاوز المطلوب، صار عذابا.. وهنا استغاث الناس، ودعا النبي ﷺ واستجاب الرب عز وجل.

لذلك فإن الدعاء والذكر والتسبيح .. عند نزول البلاء مطلوب .

٣- الابتلاء يوم الحديبية :

كان صلح الحديبية من أشد البلاء على المسلمين..

كان ظاهره هزيمة وآلاما، لكنه في الحقيقة كان خيرا وبركة ورحمة وفتحا لهم .. وكان في الوقت نفسه عذابا لأعدائهم ..

كان الصلح فتحا عظيما، فقد اجتمعت لرسول الله ﷺ المغفرة، وتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم

وبويع بيعة الرضوان، وظهرت الروم على فارس ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

راجع فتح الباري : ٧ / ٥٠٦ بتصرف

وفي هذا يقول عز وجل : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ الفتح ٢ : ٣

وقد أخبر سبحانه أنه ﴿ . .أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ . . ﴾ الفتح : ٢٨ .

وهذه بشارة، أي فلا تظنوا ما وقع من الإغماض والقهر نصرة لعدوه ولا تخليا عن رسوله ودينه .

وكان الصلح رحمة للمؤمنين فقد أنزل الله الرحمة والسكينة في قلوبهم وغفر لهم ووعدهم الجنة ﴿ . .أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ . . ﴾ الفتح : ٤ وكان في نفس الوقت عذابا للظالمين ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ الفتح : ٦ . وغضب الله عليهم :

أى أبعدهم عن رحمته .

تفسير بن كثير : ٧ / ٣١١ ط. الشعب .

معارضة المسلمين لصلح الحديبية :

كان صلح الحديبية فى ظاهره هزيمة وآلاما للمسلمين، ولكن الواقع أثبت أنه كان رحمة وفضلا وخيرا كثيرا .

لقد عارض المسلمون الصلح وغضبوا منه لأسباب :

١- أن النبى ﷺ عقده على رغمهم ولم يشاورهم، وتساهل فيه، مع تشدد قريش وتعنتها، فقد كتب العقد كما أراد سهيل بن عمرو لا كما أراد النبى ﷺ .

٢- أن قريشاً لم تعترف فيه برسالة محمد ﷺ

٣- أن النبى ﷺ وعد المسلمين بالطواف، فتهيأوا لذلك وأعدوا أنفسهم له، وعزموا عليه، ولم يشكوا فيه وأخذت البيعة .. ولكنهم رجعوا، ولم يطوفوا.

٤- أنه عندما اشترط سهيل رد من يلجأ إلى محمد من قريش وإن كان مسلما، تردد المسلمون فى كتابة الشرط، وقالوا سبحان الله ! كيف يرد إلى

المشركين وقد جاء مسلما ؟

٥- أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو جاء يرسف في قيوده ويستنجد بالمسلمين يقول : يا معشر المسلمين، أرد إلى المسلمين وقد جئت مسلما ؟يفتنوني في ديني . ألا ترون ما لقيت ؟ وكان قد عذب عذابا شديداً في الله، فرده الرسول إليهم وقال له : يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا .

كان هذا الموقف في غاية الحرج للمسلمين، لقد أثار غضبهم حتى قال عمر : فأتيت النبي ﷺ فقلت : «ألست نبي الله حقا ؟» قال : «بلى»، قلت «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟» قال : «بلى»، قلت : «فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟»، قال : «إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري »، قلت : «أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به» ؟، قال : «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟» قال : قلت : لا» قال : «فإنك آتيه ومطوف به».

البخاري في الشروط : ٢٧٣١ ومسلم في الجهاد : ١٧٨٥، وغيرهما .

إن الرسول المربي لم يعنف عمرا لأنه يعلم حسن نيته وإخلاصه وحميته للإسلام . وكان عمر يقول : «مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من أجل الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به»، وكان يقول : اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأي، وما ألوت عن الحق .

فتح الباري : ٥ / ٤٠٨ .

٦- كان المسلمون في ضيق وحيرة من أمرهم لدرجة أنه لما انتهى الصلح وأمرهم النبي ﷺ أن يتحللوا، ما قام منهم أحد .. ثم استشار أم سلمة .. فكان أن خرج لم يكلم أحدا، فنحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى يكاد بعضهم يقتل بعضهم غما .

البخاري في الشروط : ٢٧٣٢ وغيره .

الحكم من وراء صلح الحديبية :

تحمل المسلمون شروط هذا الصلح المجحفة بهم وصبروا طاعة لربهم، وتسليما لقضائه، وانتظارا لموعوده، فكان النصر العزيز لهم والذل لأعدائهم، كان من وراء هذا الصلح رحمات كثيرة وحكم بالغة . نذكر منها :

١- كانت قريش تصر على عدم دخول المسلمين مكة أبدا، لكنها تراجعت أمام نصائح حلفائها بحق النبى ﷺ فى العمرة، طالما أنه لا يريد قتالا، وأمام الإصرار على زيارة البيت وأداء العمرة، وأخذ البيعة على الموت إن صدتهم قريش .. لذا تراجعت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للصلح، على أن يرجع محمد ﷺ عنهم عامهم هذا.

وبذلك يكون النبى ﷺ قد حقق نصرا، وهو اعتراف قريش بحق المسلمين فى دخول مكة رسميا بعد عام دون أن يتعرض لهم حد .

٢- أن أبا بصير جاء من قريش إلى النبى ﷺ

مسلما، فأرسلت قريش تطلبه من النبى ﷺ طبقا لشروط الصلح، فدفعه النبى ﷺ إلى قريش .. لكن أبا بصير استطاع أن يهرب منهم إلى الساحل واستطاع أبو جندل أن يهرب من قريش ولحق بأبى بصير، فكان لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم .. أن من أتاه فهو آمن، فأرسل النبى إليهم ونزلت ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .... ﴾ الفتح٢٤ .

البخارى فى الشروط : ٢٧٣٢ وغيرهم .

٣- ومنها أن الله تعالى رضى عن المؤمنين إذ بايعوا النبى ﷺ على الموت : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... ﴾ الفتح : ١٨ .

لقد علم الله ما فى قلوبهم من الإخلاص والصدق والوفاء، وقال لهم النبى ﷺ : «أنتم اليوم خير أهل الأرض».

البخارى فى المغازى غزوة الحديبية : ٤١٥٤،
ومسلم فى الإمارة : ١٨٥٦ / ٧١ .

والله سبحانه اعتبر مبايعتهم لرسوله مبايعة لذاته تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... ﴾ الفتح: ١٠

ووصفهم بأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح : ٢٩ .

٤- أنزل الله السكينة فى قلوب المؤمنين ﴿ .. أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ الفتح : ٤،أى أنزل الرحمة .

٥- ومنها قوله تعالى :﴿ ..وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ الفتح: ٢٠، فلم يحدث قتال ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً ﴾ يعتبرون بها، فإن الله حافظهم وناصرهم مع قلة عددهم، وليعلموا أن الله عليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره الله وإن كرهوه فى الظاهر .

٦- ومنها قوله تعالى : ﴿ .. وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ .. ﴾ الفتح : ٢٥ فقد

كان فى مكة بعض المستضعفين لم يعلنوا إسلامهم، ولو حدث قتال ودخل المسلمون مكة، فربما داسوهم وقتلوهم .. لأن ساعة المعركة لا يمكن التفريق بين المسلم والمشرك، فكان الصلح حقنا لدماء المستضعفين المقيمين بمكة ، وعلم الله أنه سيدخل الإسلام خلق كثير من أهل مكة، وفعلا كان منهم قادة البعوث الإسلامية الذين واجهوا كسرى والروم ..

٧- كان الصلح فتحا فى الدعوة، ومقدمة للفتوح والمغانم ودخول الناس فى دين الله أفراجا . فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، فقد انطلقت الدعوة بعد اعتراف قريش بدولة الإسلام وإزالة مخاوف العرب من قريش، وأمن الناس بعضهم بعضا .. ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل فى الإسلام بين صلح الحديبية وفتح مكة مثلما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر، فقد خرج فى الحديبية ألف وأربع مائة، وخرج بعد سنتين فى عام الفتح عشرة آلاف .. وكان الصحابة يعدون صلح

الحديبية من أعظم الفتوح، ولما نزلت سورة الفتح قال عمر : يا رسول الله، أو فتح هو ؟ قال : « نعم » .

البخارى فى الجزية والموادعة : ٣١٨٢ وغيره ..

من المفارقات :

من المفارقات أن سهيل بن عمرو هذا الذى كان يتشدد فى شروط الصلح .. قد أسلم وحسن إسلامه .. قال أبو بكر «ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه عز وجل، والعباد يعجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد . لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو فى حجة الوداع قائما عند النحر، يقرب إلى رسول الله ﷺ بدنه، ورسول الله ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، وأنظر إلى سهيل يلتقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه، وأذكر إباءه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ويأبى أن يكتب: محمد رسول الله ﷺ. فحمدت الله على الذى هداه للإسلام، فصلوات الله على نبى

الرحمة الذى هدانا به من الهلكة» .

حياة الصحابة : ١/١٥٧ نقلا عن كنز العمال : ٥/٢٨٧

وصور من حياة الرسول، أمين دويدار صـ ٤٧٤

نقلا عن إمتاع الأسماع .

★★★

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .. وبعد فإن هذا الكتيب لم يتعرض لموضوع الابتلاء بعامة وإنما تعرض لجزئية هامة من الموضوع الواسع، وهو الفرق بين ابتلاء المؤمن وابتلاء الكافر، فالابتلاء للأول رحمة وللثانى عذاب .

هذا وقد صدر لى كتاب : الابتلاء رحمة أو عذاب، وهذا الكتيب مختصر منه ومنقح.. فى إيجاز غير مخل، ليكون سهل المنال مناسب للوقت والحال وليكون فى متناول الجميع .

والله المستعان والحمد لله رب العالمين ونسأله تعالى العفو والعافية

المؤلف

★★★

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

كتب للمؤلف

١ - مختصر مدارج السالكين	دار الدعوة
٢ - منهج القرآن فى التثبت من الأخبار	دار الدعوة
٣ - البذل والتضحية فى سبيل الله	دار الدعوة
٤ - الشفاعة	دار الدعوة
٥ - آداب الاستئذان	دار المدائن
٦- آداب غض البصر	دار المدائن
٧ - آداب بر الوالدين والأقارب	دار المدائن
٨ - الابتلاء رحمة أو عذاب	دار بن لقمان
٩ - مختصر الابتلاء رحمة أو عذاب	دار المدائن

رقم الإيداع
٢٠٠٢/٥٦١٥